قصة قصيرة

زهرة اسمها أصيلة

خليل الفزيع

(١)

يشكل مقهى الزريرق أو مقهى الصيادين المطل على الشاطىء أحد المعالم البارزة في أصيلة في أقصى المغرب.. قرب طنجه.. داخل هذا المقهى يجتمع شيوخ الصيادين.. الشباب يحتلون المقاعد المنتشرة أمام المقهى.. ينشغل الشيوخ باسترجاع الذكريات.. ينصرف الشباب بحيويتهم التي لا تعرف الهدوء.. إلى ممارسة أمور كثيرة.. يتحدثون عن الصيد.. عن السياسة.. أثناء شرب الشاي الأخضر وتدخين السجاير المحلية الصنع أو المعدة في حينها مع أشياء أخرى.. ولأن مقهى الصيادين يحظى باحترام الكل، فإن القطط والكلاب تعودت أيضاً التردّد عليه دون أن يضايقها أحد.. مقهى الصيادين أضحى من معالم أصيلة.. ومجلس الشيوخ أضحى من أهم معالم مقهى الصيادين.. أنه مكانهم المفضل في الصباح وفي المساء.. في الصباح عندما ترسل الشمس أشعتها فيشعرون بالدفء يتوغل في أجسادهم بعد ليل شاقّ مع البحر.. في المساء عندما تهبّ نسيمات البحر المنعشة وهي تصافح وجوههم وتشعرهم ببرودة خفيفة كلما صمّم قرص الشمس على الاختفاء في مياه البحر تاركاً هذه المدينة الصغيرة تعج بصخب هادىء داخل البيوت الطينية، أو قرب المجلس البلدي، حيث تتجمع سيارات الأجرة وهي على أهبة الاستعداد للانطلاق بركابها الذين يبدون وكأنهم يريدون الهروب من ليل أصيلة الصاخب بهدوء إلى ليل طنجة الصاخب بعنف وقسوة.

ومن نسيمات المساء المنعشة كان رواد مقهى الزريرق يعرفون حالة البحر ويقدرون الإقدام أو عدم الإقدام على الصيد في ذلك المساء.

(٢)

ليست كل المدن تستهويك بعنف.. لكن أصيلة لن تلبث أن تضمّك إلى قائمة المعجبين بها حالما تطأ قدماك أرضها التي يضاجعها البحر صباح مساء.. من يدري!.. لعل سحرها الخفي هو الذي جعل أفئدة الفنانين تأوي إليها كل صيف.. ليشهدوا فنوناً تسلقت جدرانها، ويذكروا ماضيها الحافل بالمباهج في كل الفصول.

صيفها عرس دائم مطرز بالفنون..
ربيعها مهرجان للزهور والمحبّة..
شتاؤها برده حنان وأمطاره خير..

بينما تتفرد بين كل مدن الشمال الافريقي بخريف يختصر كل الفصول. تلك هي أصيلة الأصيلة.

(٣)

ذات صباح ربيعي مبكر.. لاحت في الأفق مقدمة سفينة اتضح فيما بعد أنها سفينة صيد إسبانية، لم تلبث أن رست على شاطىء أصيلة ذات التاريخ العريق والمسماة في عيد الفينيقيين هزيلة، والتي أطلق عليها في فترة من فترات التاريخ اسم زيليس، حتى جاء الأدارسة، وسوروها لتلعب

دوراً هاماً إبان الخلافات بين الأندلس والمغرب.

عندما رست السفينة الاسبانية لم يعرف سكان أصيلة الهدف من رسوها، كما لم يعرفوا من قبل الهدف من زيارة كريستوفر كولومبس عندما مرّ بهم في رحلته الرابعة والأخيرة للعالم الجديد، والتي ذكر الرواة.. فيما بعد أنه مرّ بها لإصلاح سفنه.

سفينة الصيد الأسبانية تحمل مجموعة من الصيادين، لم يمكثوا كثيراً على الشاطىء.. قفلوا راجعين ما عدا واحداً بينهم ضاعت كل الجهود لإرجاعه.. هرب.. اختفى في مكان ما من أصلية.. منذ ذلك اليوم والجميع يطلقون عليه اسم اللاجىء السياسي.

لم يكن اللاجىء السياسي سوى كلب من فصيلة البيرجي.. لا يختلف كثيراً عن كلاب الحراسة. ولأن أغلب سكان أصيلة من الصيادين الذين يتخذون من مقهى الزريرق مقراً شبه دائم لهم فقد كان اللاجىء السياسي لا يفارق هذه المنطقة إلا نادراً.. يحرس أدوات الصيد.. يمنع القطط من السطو على أسماك الصيادين وقت إنزالها من قوارب الصيد.. وثق به الكل.. إلى أن جاء يوم.. حل بأصيلة غريب.. كانت له إقامة طائرة في الزمن الغابر.

(٤)

انهمر رذاذ خفيف سمع الجميع صوته فوق سطح المقهى.. لكنه لم يمنعهم من الحديث، وإن كان البعض قد انشغل بالتفكير في احتمال زيادة انهمار المطر، وبالتالي إعاقة الصيد. قال رئيس مجلس الشيوخ وهو أكبرهم سناً.

- هذا الغريب الذي استقر بيننا ما رأيكم فيه؟!.

قال أحدهم:

- كثير من الغرباء يفدون إلينا ثم يرحلون.. هل ترى في هذا الغريب ما لا تراه في غيره؟

أجابه رئيس مجلس الشيوخ بعد صمت يسير:

- الغرباء الآخرون يرحلون بعد انتهاء الصيف.. لكن هذا الغريب يبدو أنه لا يريد الرحيل.

قال أحد الصيادين:

- ليس لدينا عليه أيّ مأخذ..

علّق آخر:

- المأخذ أن تصرفاته غريبة، ولعلكم لاحظتم أن اللاجىء السياسي بدأ يلازمه بشكل دائم!

قال أحدهم:

- لعله وجد لديه ما لم يجده لديكم!

أرادهم أن يضحكوا لكن أحداً منهم لم يفهم مقصده.. ظلت الجدية مخيمة على الجميع..

قال رئيس الشيوخ:

- لماذا لا ندعوه لمجلسنا، ونسأله عن أسباب وجوده بيننا؟.

أجاب أحدهم بعد أن انتهى من سحب نفس عميق من غليونه القصبي، ونفثه في الجوّ بلذّة:

- هو يتحاشى الحديث مع الجميع.. فهل سيوافق على الحديث معنا؟.

علق رئيس مجلس الشيوخ:

- فكرة الجلوس معه على طاولة واحدة مرفوضة، فهو على كل حال غريب.. لا نفهم لغته وإن كان يفهم لغتنا.

أصغى الشيوخ إلى ضجيج الشباب خارج المقهى.. يضحكون ويدخّنون.. يتحدثون عن الصيد ويدخنون.. يثرثرون عن مغامراتهم في طنجة ويدخنون.. يذكرون سبته وعليله ويدخنون.. يتابعون أخبار فلسطين ويدخنون.. حتى عندما يظهرون احترامهم للشيوخ فإنهم يدخنون.

(٥)

الأزقة الترابية لا تزال تحتفظ بشيء من رطوبة البحر.. الجدران التي غزتها رسوم هي بقايا مهرجان سابق لا تزال آثار الظل بادية عليها.. بينما برزت من بعض شقوق تلك الجدران وعلى استحياء.. نبتات من العشب الجداري.. الصبية في طريقهم إلى المدرسة.. تجمعوا أمام منزل الغريب.. في عيونهم ارتسمت علامات استفهام عن أسباب اقتحام رجال الأمن لهذا المنزل والخروج منه بآلات وأدوات قيل إنه يستعملها في عمله كجاسوس للأعداء، ومع أن ذلك بدا غريباً للصغار.. لكن الأغرب منه بالنسبة للكبار هو اختفاء اللاجىء السياسي من القرية، منذ ذلك الصباح الذي كانت شمسه ترسل أشعتها التي بدت أرجوانية هادئة، لكنها مصممة على الشروق لإجبار آخر خيوط الظلام على الرحيل.

● الدمام